حماساً ومقدرة لتنفيذ الدولة العربية؛ وأمام الصهاينة رجل التفاهم والتنازلات؛ وأمام الفرنسيين القائد الذكي الذي يعرف مصلحته. كل هذه الخيوط، ليس بمقدور شخصية أخرى ان تقوم بها، سوى الأمير فيصل، ذي الأسلوب البراغماتي الطامح في عرش وتاج، في أي بقعة، مهما صغرت، من بقاع تلك الأمبراطورية المحفوظة في خزانة الوثائق البريطانية.

وما تعلمه من لورنس، أن يسعى الى تحقيق أغراضه، بعيداً عن المبادىء والاتفاقات، عبر قدرته على التكتيك في كل مرحلة، واستثمار العوامل المساعدة كلها، بما في ذلك الثورة المسلحة. وتفتحت مواهبه المساومة، منذ اصطحب سايكس وبيكو الى قصر والده، وعندما زاره حقي العظم، مندوب الزعماء السوريين في القاهرة، ونقل اليه وعد بلفور. فحين عاد حقي العظم، قال ان الأمير لا ينظر «بارتياح الى تصريح بلفور. ولكنه لا ينوي الاحتجاج على حصول اليهود على حق اقامة وطن قومي في فلسطين»[٥٨].

ومن اتفاقية سايكس ــ بيكو ووعد بلفور، الى الصلة المباشرة مع الصهيونية، دشن الأمير خطوته الأولى في اعلان البراءة من مملكة أبيه الموعودة، ومن شعارات الثورة العربية. وحين قابل شعب فلسطين، البعثة الصهيونية برئاسة وايزمان في العاشر من نيسان (أبريل) ١٩١٨، بالمظاهرات، احتجاجاً على أهدافها المعلنة والمبطنة، مثل تكوين فرقة البغالة اليهودية، وشحذ «همم يهود القدس كي يضحوا بحياتهم، ولا يتركوا البريطانيين وحدهم يفتدون البلاد بدمهم»[٥٩]. كان الجنرال كلايتون يرتب أول لقاء بين الأمير والزعيم الصهيوني. وتم اللقاء في بلدة «وهيدة»، قرب العقبة، في الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩١٨، وكان ودياً، وفاتحة علاقة تبلورت قبيل مؤتمر الصلح وأثناءه. وليس صحيحاً، أن مفهوم الأمير فيصل المساوم، كان يشترط قيام الأمبراطورية العربية، لمنح الجيب الصهيوني في فلسطين كل الامتيازات، بما في ذلك المصادقة على وعد بلفور والتخلي عن فلسطين كلياً. ويبدو من نافلة القول أنه لو فاز «الملك حسين والأمير فيصل بدولتهما العربية الكبرى لتنازلا عن فلسطين الصغيرة لليهود»[٦٠]. لأن الشيء المضمون آنذاك، لم يكن الدولة العربية الكبرى، وانما جذب الأمير الى تأييد المطامع الصهيونية في فلسطين، وهذا ما حدث في اتفاق فيصل ــ وايزمان بلندن في ١٩١٩/١/٣. اذ أباح الأمير لنفسه، مصادرة التمثيل الفلسطيني، فيما كان يتحدث رسمياً باسم الحجاز، وعندما دخل عليه عوني عبد الهادي وأحمد قدري، وهو مجتمع مع وايزمان ــ سوكولوف ــ هربرت صموئيل، قال: «ان اليهود يودون تشكيل دولة يهودية في فلسطين، فرد هربرت صموئيل: ليس ثمة من يكتب، بل من يفكر، بمثل هذا الّا ان يكون خيالياً مجنوناً. ويبدو أن الأمير «اقتنع بكلام هربرت صموئيل»[٦١].

ونصت المادة الثالثة من اتفاق فيصل ــ وايزمان على أن «تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، حين وضع دستور حكومة فلسطين». وقيل ان الأمير أضاف «شرط أن ينال العرب استقلالهم من رفح الى طرطوس وخليج العجم»[٦٢].

وحتى لا يترك الأمر ملتبساً، كتب الأمير في جريدة «الجويش كرونيكل»، لسان حال الجمعية الصهيونية في انكلترا، مقالاً في ١٩١٩/١٠/١٤، جاء فيه: «حتى اذا كثر عدد